الفصل السادس عشر

الدفــاع والشــؤون الخارجيــة

قليل من التفكير أمام الخريطة الجغرافية لباكستان يكشف مدى ضخامة وخصوصية مشاكلها الدفاعية. وأكبر المشاكل هي في كونها مؤلفة من جناحين يبعد أحدهما عن الآخر ألف ميل. والجناحان لايختلفان فقط في السكان بل في طبيعة الأرض والمناخ إلى حدٍ ما وفي حجم وهيئة الأجسام والأمزجة والتقاليد بالنسبة للحرب. وليس لأية دولة مُوحّدةٍ في العالم مشاكل مشابهة. فالقوات ـ بأعدادٍ كبيرة ـ والمستودعات العسكرية الثقيلة لايمكن نقلها من جناح لآخر إلا عن طريق البحر بالقرب من شواطيء سيلان ـ سريلانْكا ـ وطول الرحلة ثلاثة آلاف ميل وتستغرق نحو عشرة أيام.

ثم هناك مشاكل كبيرة أخرى فباكستان مؤلفة من المناطق الحدودية الشمالية الغربية والشمالية الشرقية لأمبراطورية الهند السابقة التي حَكَمَتْها بريطانيا. لذلك ورثت عن الحكم البريطاني أكثر المشاكل الدفاعية. ففي الشمال على حدود الهملايا بمواجهة (التيبتْ) و(الصين) والتي احتلتها حكومة السيد (نهْرو) لم يكن فيها في الواقع أية مشكلة دفاعية لبريطانيا خلال حُكمها وانشغال ذهن الهند في هذا الموضوع في الوقت الحاضر أمر حديث؛ أما مشاكل الحدود الشمالية الغربية، والتي ورثَتْها باكستان فلقد كانت خطيرة ومشهورة. ورغم تغير طبيعة هذه المشاكل إلا إن خطورتها لاتزال كما هي.

والواقع أن وجود القبائل شبْه المستقلة على الحدود الشمالية الغربية أمر أقل أهمية الآن؛ فلا يوجد فيها ـ في الوقت الحاضر ـ ضباط مسيحيون ولا قوات من الهنْدوس والسيخ كأهدافٍ لنيران رجال القبائل... ليس هناك مُشركون بل إخوة مسلمون ولو إن هذا قد لايَسرّ كثيرا رجال القبائل. ومنذ عام ١٩٤٧ قبلوا الصلات التربوية والاقتصادية الأوثق مع باكستان بالمقارنة لما كانوا عليه مع البريطانيين. وتوجسُ باكستان في بادئ الأمر، منهم رغم صفته الحذِرة لم يكن لازماً، على مايبدو. فالإسلام واعتبارات المصالح الذاتية جعلهم ـ كما يظهر ـ مواطنين باكستانيين مُخْلصين. وفي الجنوب الغربي تتمتع باكستان بعلاقات ممتازةٍ مع إيران وفي الحقيقة وجد البلدان نفْسيهما على اتفاق تام لدرجة أنهما فكرا في إقامة اتحاد بينهما في أوائل عام ١٩٥٨م.

obeikandi.com

ولكن استمرار الموقف غير الودي لافغانستان ماوراء حزام القبائل يُسبب لباكستان مشاكل أكثر تعقيداً وخطورة، كما سنُفصِّل، مما واجه البريطانيون منْ افغانسْتان. ووراء افغانستان تقبع روسيا السوفيتية وهي بصورةٍ عامة غير ودية أيضاً كما أوضحت تصريحات (خروتشيف)، وهي ـ أي روسيا ـ أقوى بكثير مما كانت عليه خلال الحكم البريطاني لشبه القارة الهندية. وهذه هي المنطقة التي مَرّ عبرَها في الماضي كُلّ الفاتحين منْ الاسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد إلى أحمد شاه عبد لي في عام ١٧٦١م، ورغم ان التاريخ لا يعيد نفسه دائماً فقد يحدث ذلك إذا كانت طبيعة الجغرافيا عاملاً مسهلا.

كذلك لايمكن إهمال الحدود الأخرى في الجنوب الشرقي المُحاذي لبُورمَا والتي أهملها الحكم البريطاني بصورةٍ غير حكيمة... حتى يوم خروجه من شبْه القارة. ولقد ورثت باكستان خُمْسَ تلك الحدود في منطقة (أراكان) ولقد أذْهَلَ اليابانيون العالم لما كشفوا مدى سهولة اقتحام الحدود مع (بورما) على أيدي قوات مُدربة. ورغم ان العلاقات مع بورما وُدية... فقد لاتدوم كذلك.

بالاضافة لكل ذلك هناك مشاكل لما يمكن أن نُسميه الحدود الداخلية لباكستان وهي نتاج تقسيم عام ١٩٤٧ وطولها ثلاثة آلاف ميل في الجناحين الغربي والشرقي، التي خططها على عجل محام بريطاني غير عارف بطبيعة البلاد، وينقصُ تلك الحدود أي حاجز جغرافي ماديّ ـ جيوفيزيائي ـ من أي نوع كان لدَعْمها وتثبيتها، وهي حدود باكستان مع دولة الهند الجديدة. ونظرياً يجب أن تكون هذه الحدود حدود دولتين صديقتين لاحاجة فيها لمواقع دفاعية مثلما هو الحال بين كندا والولايات المتحدة الأميركية، ولكن الواقع أن هذه الحدود كانت أكبر أسباب هواجس باكستان.

وانطلاقا من الحدود الغربية باتجاه الشمال هناك شيء مختلف جداً: خَط الهدْنة ـ خط وقف إطلاق النار في كشمير يراقبه ضباط الأمم المتحدة ـ وهذه ليست الحدود النهائية المتفق عليها أبداً، بل شريط من الأرض حَدَث ان أوقفَ القتال عنده في يوم ما. وهي حدود صعبة بها مشاكل كثيرة تُسبب الاضطراب للرجل العادي حينما يريد اجتيازها تماماً كما هو الحال في حدود اسرائيل مع جيرانها العرب.

ويستطيع أي زائر أجنبي، بتجربته المباشرة، أن يقدر دون أن يدخُل كشمير أسباب مشاعر الباكستانيين القوية تجاه هذه المشكلة. سَافِرْ بالسيارة من (لاهور) إلى (راولبنْدي)

في أحد أيام شتاء البنجاب حيث السماء صافية زرقاء وانْظُرْ بعيْنَيْن وتخيلْ؛ فأنت هنا على الطريق الرئيس، الطريق التاريخي الذي يقطع سهول نَهْرَيْ (الأندوس) و(الغَانجي)، وعلى محاذاتها الخط الحديدي الذي يصل كراتشي بـ (بشاوِرْ) وامتداد هذه الطريق، والخط الحديدي هو في الواقع (الشريان الأبْهر) لشبكة المواصلات في غرب باكستان. ومن هذا المكان تجدُ على يمينك بصورة واضحة على امتداد الطريق، بَعْدَ أن تجتاز (كجْرَنْوالا) على طول مئة وخمسين ميلا تقريباً وفي الجو الأزرق الفضي سلسلةً شامخة (للبِرينجالْ) التي تحتلها الهنْد والتي قد يخرج من فجواتها يوماً ما عدو أقوى عدداً ليقطع شريان المواصلات الحيوي الذي تدرج عليه سيارتُكُ!.

وليس من الصعب، عندما نضع في تصورنا هذه المشاكل الدفاعية المعقدة، أن نفهم لماذا يكون لباكستان «مذاق» عسكري مِثْل اسرائيل، ولماذا جعلت باكستان قواتها المسلحة أفضلَ ما يمكن أن يوفرَه لها دَخْلُها المحدود، ولماذا قبلَ الباكستانيون بحماسٍ العَوْنَ الأميركي، ولماذا تحملتْ الطبقات الموسرة فيها العبء الضريبيّ الذي لابدّ منْه بلا تذمُّر، ولماذا بدا للعديد من مثقفيها انه في حالة أزمة الضعف الإداري كما حدث عام ١٩٥٨م ليس خطأ أن يتقدم (الجنرالات) فيطردوا الوزراء ويقلبوا الدستور ويتسلموا بقبضة ثابتةٍ مقاليد الأمور.

تشكيل جيشين جديدين قويين في عام ١٩٤٧ من جيش الهند الإمْبريالي الواحد كان في الواقع أقل صعوبة مما اعتقده كثيرون في الأسابيع التي سبقت التقسيم. ربما كان الحظ وحده هو السبب إذ لم تقع أية حادثة كبيرةٍ تثير الاضطراب. ولكن السبب الرئيس كان بلاشك نظام وسلوك الجيش القديم اللذين بقيا حتى النهاية، وهو إنجاز يُثير الإعجاب بخاصة عندما نذكر ماذا حَلّ بجيش الهند الوطني (I.N.A) والبحرية الملكية الهنْدية (R.I.N) عام ١٩٤٦.

إلا أن الصداع عند من شكّلوا الجيش الباكستاني كان أكبر وأكثر مما كان عند مماثليهم الهنود. فبالاضافة للحقيقة التي ذكَرْناها من أن حكومة السيد (نِهْرو) منعت تقاسم المستودعات العسكرية مع باكستان رغم وروده في اتفاقية التقسيم، وألغتْ رئاسة أركان الفيلدمارشال (أوشنلكْ) في دِلْهي الذي كان سيراقب توزيع المعدات؛ نقول بالاضافة لذلك كانت الجغرافيا مرتبة بحيث أن كلّ المعامل والورشات العسكرية في شبه القارة تقع في دولة الهنْد وليس في باكستان، كذلك كل مراكز التدريب والكليات ماعدا الكلية

المشهورة لضباط القيادة ورئاسة الأركان في (كُويتا) مثلاً كان على باكستان افتتاح كلية عسكرية رأساً في (كاكُول) بَدَلَ الكلية التي كانت في (دَهْرادْ) ومركز هندسيّ جديد في (رسالبورْ)... وهكذا. وفي البداية كان الجيش الباكستاني يفتقر لعددٍ من الخبراء في سلاح الهنْدسة وسلاح المدفعية. وكان التجنيد والتوظيف في الجيش في الماضي غير متوازن، وكان الأمر يستدعي عقوداً حتى يكون تمثيل الجناح الشرقي لباكستان في الجيش موازيا لجناحها الغربي. صحيح أنه كان للهنْد مشكلتها في الطوائف «غير المحاربة» ولكن ليس لنَفْسِ الدرجة التي كانت في باكستان. والمشكلة بالنسبة لباكستان أيضاً هي في عدم وجود وحدات مسلمة متجانسة في جيش الهنْد قبل التقسيم أما ماكان يُسَمي بالوحدات «الطبقية» أو الطائفية فكانت مشكلة كُليّاً من الهنْدوس: «مهراتا» و«دوْغْرَا» وهكذا، وكلها دخلت كاملة في جيش دولة الهند الجديدة، ولم تَنَلْ باكستان شيئاً مماثلاً لذلك. فعند التقسيم حصلتْ على أجزاء من الوحدات لذلك استغْرق تشكيل وحدات الجيش الباكستاني وقتاً أطول. ولقد ذكر (بيرْوُوْدْ) أنّه في تشرين أول ـ اكتوبر ـ ١٩٤٧ لم يكن لدى باكستان تقريباً إلا وحدة عسكرية واحدة؛ وفي عدّه وحدات أخرى كان ضباط قيادتها لايزالون من الهنْدوس أو السيخ، وكان للهندوس مناصب في القيادة العامة للجيش. وفي بداية الاستقلال كان أكثر ما يشغلُ الجيش هو مرافقة وحماية جماهير اللاجئين، وكان ذلك عبْئاً أكبر على باكستان من الهنْد بسبب صغَرِ حَجم جيشها نِسْبياً. ثم في ربيع عام ١٩٤٨ حصل القتال في كشمير حيث عُهِدَ إلى القوات الباكستانية كما يقول (سيْمونْدْزْ) بمهمة دقيقة جداً، إذ صدرت تعليمات إليهم بحراسة بعض النقاط الهامة دون المشاركة في أية عمليات. ولقد هاجمتهم الطائرات ولم يكن لهم تغطية جوية. ولعدة شهور كان وجودهم سراً لذلك لم تدعمهم معنوياً أجهزة الإعلام ولم تصلْهم رسائل من عائلاتهم.

رغم ذلك كله بَنَتْ باكستان قواتها المسلحة في بحر سنوات قليلة، بدرجة عالية من الفاعلية مما جعلها مهنياً بين طليعة الجيوش الآسيوية. وللقوات المسلحة شعبيةٌ كبيرة فإخوانهم من المواطنين ينظرون إليهم بفخْرٍ واحترام ـ وليس الأمر دائماً كذلك بالنسبة لقوات الشرطة ـ قد تصدر عن بعض السياسيين الخائبين الذين خسروا مناصبهم بسبب انقلاب عسكري أو الذين طُردُوا من الوظيفة لعدم كفاءتهم، بعض الانتقادات لجنرالات الجيش ولكنه من الصعب تصور أن يقول أي باكستاني كلمة سوءٍ في قواته المسلحة بعامة.

وفي آخرِ التحليل يمكن للانسان أن يقول إن السياسة الخارجية لدولةٍ ما هي ما يُمكّنها من البقاء، ويحفظ كيانها مستقلاً. ربما تكون هذه السياسة مخططة مُحددةً بوضوح ولكن ليس ذلك لازماً بالضرورة، إذْ يمكن إبقاء التفاصيل غائمة مُبهمة والمهم هو عزم وإرادة الزعماء والجماهير على البقاء. ولم تكن السياسة الخارجية لباكستان في الأشهرِ الأولى من عمرها، أكثر من ذلك بكثير. لم تكن السياسة الخارجية دقيقة التحديد. كانت تصريحات السيد جناح مدروسة، وكان يُعبر عن حسن نية باكستان تجاه جميع الدول. ويؤمن بالتعامل العادل والنزاهة على المستوى الدولي ويعلن عن استعدادها للإسهام في توطيد السلام وهكذا. ومع ذلك، سرعان ماظهرت بَعْضُ التوجهات والمواقف بَدَلَ صياغةٍ صلبة للسياسية الخارجية، فبجانب الخوف من الهنْد وهو العامل المؤثر في كل شيء كانت إحدى التوجيهات صداقة حارة مع بريطانيا مقرونة بإيمان بالقيم الواقعية لعضوية (الكومنْولْثْ) مفترضين أن هذه المشاعر ستكون متبادلة. والتوجه الثاني كان حماساً ساذجاً نحوَ تجمع مسلم مع الدول المسلمة الأخرى. وثبت أن كلا التوجهين المتبنيين بصورة غريزية، كما يقول أكثر الباكستانيين الآن، لم يكونا مُرضيَيْن بل كانا في غير محلهما ونتج عنهما كثير من الاحباط والخيبة.

ففي آب ـ أغسطس ـ من عام ١٩٤٧ وجد الباكستانيون أنفسهم، مثل الهنود، سعداء بأن يكونوا مواطنين لدولة مستقلة ذات سيادة غير خاضعة لسيطرة أجنبية. وكانت الفرحة الشعبية في (كراتْشي) عارمة مثلما كان الأمر في (دلْهي) وكانت الفرصة مزدوجة بالنسبة للباكستانيين فلقد فرحوا بالخروج من ربقة السيادة البريطانية والخلاص من نظام حكم تُسيطر عليه أغلبية هندوسية في الناحية المقابلة لحدودهم. ولم يكن لحركة التحرير المسلمة في شِبْه القارة أية خصومة مباشرة تقريباً مع بريطانيا باستثناء مواجهة قصيرة الأمد خلال اضطرابات الداعين للخلافة مابين عام ١٩٢٠ و١٩٢٢[1] فأكثر الخصومات كانت بين بريطانيا وبين منظمات سياسية هندوسية: حزب المؤتمر الذي يدعي أنه غير طائفي مع ان الهندوس هم الذين يُسيرونه، ومنظمة (الماهاسبْهَا) وخلال تلك الخصومات جرت أمور قاسية، قولاً وعملا، وأريقت بعض الدماء. ربما كانت عقْلية المسلمين بسيطة! لم يفترضوا أن كل ماجرى يمكن محوه من ذاكرة البريطانيين، وتنعكسُ عقودٌ من الذَمّ والتحقير اللذين

(١) راجع الفصل الرابع.

مارسهما ضدّهم الهندوس منذ عام ١٩٠٥ إلى حياد، بخاصة بعد تمرد حزب المؤتمر المكشوف في آب ـ أغسطس ـ ١٩٤٢ في أسوأ مراحل الحرب عندما كان اليابانيون يهاجمون حدود البنغال. قدرَّ المسلمون إنه من المؤكد عدم إمكانية نسيان البريطانيين لذلك ولذا اعتمد الباكستانيون خلال الأسابيع الأولى بَعْد الاستقلال على أن دولتهم الجديدة التي تصارع الظروف القاسية ستحظى بمعاملة عادلة على الأقل من الحكومة البريطانية وربما ببعض العطف أيضاً. إذْ كان من التقاليد البريطانية الوقوف بجانب الدول الصغيرة التي تواجه دولاً كبيرة طامعة.

ويعتبرُ الباكستانيون انهم لم يحظوا بذلك الموقف العادل ففي الأوقات الحرجة كانت بريطانيا تضع ثقلها دائماً بجانب الهنْد، على حد رأيهم ـ سواء أكانت الحكومة القائمة «محافظة» أو «عمالية» ـ ولا مجال هنا لعَرْض المناسبات التي ساقوها كشواهد على ذلك[١] لإننا سنبحث في هذا الفصل علاقات باكستان بالدول الأخرى. ولقد تقلصت في نظرهم أهمية بريطانيا. ولكن سرعان ما جاءت المشاكل. وعندما وقعت مذابح البنجاب في تشرين أول ـ أكتوبر ـ ١٩٤٧ وجهت باكستان نداءً لبريطانيا و(الكمنْولْث) للمساعدة أو للتوسط، فجاء رد لندن بارد اللهجة، كما ذكر (سيمونذْز)، لدرجة أن باكستان اعتبرتْهُ رفضاً. وشعر السيد جناح بالمرارة وصرح: «إن بريطانيا تقف منا موقف اللامبالاة، إن عليها أن تستعملَ الإقناع الأخلاقي للمساعدة على حل الخلافات بين أعضاء منظومة (الكومنولث) ولكن حكومة صاحب الجلالة تهرَّبتْ حتى الآن من تحمل مسؤوليتها».

وجاءت ذروة الأحداث في نيسان ـ إبريل ـ عام ١٩٤٩ عندما سمح للهند بالبقاء في (الكومنْولْث) بعد تنكرِها للتاج البريطاني وإعلان نفسها جمهورية. وكان هذا الموقف البريطاني غير مفهوم بالنسبة للباكستانيين إذْ غيّرتْ الهنْد منطومة (الكومنْولْث) وضَعُف إثْر ذلك اهتمام الباكستانيين بالكومنولث ولكنهم استمروا في عضوية المنظومة لسبب رئيس، هو منعُ الهنْد من استغلال عضويتها فيها، ولأسباب ثانوية أخرى منها منافع عملية لا يمكنهم الحصول عليها لو كانوا خارج المنظومة: مثل المعلومات الخاصة، والمعلومات الاقتصادية. ويُلخصُ (اشتياق قريشي) ذلك على نحوٍ غير بعيد عن الحقيقة فيقول: «بدأت باكستان حياتها بمشاعر حماسية من الصداقة لبريطانيا، ومنذ ذلك الحين والعلاقة بين

(١) يراجع كتاب (سردار حسن) وكتاب (أسلَم صديقي) اللذين عرضا الشواهد لذلك بأسلوب جيد.

البلدين صحيحة ولكن قليلا ما تكون دافئة».

وليست هذه هي القصة بكاملها. فرَغْم تبدُّد آمال باكستان بموقف بريطاني أكثر فاعلية، وصداقة أكثر إيجابية، ورغم فتور حماسها كذلك للكُومنولث، فقد بقي موقفها في السياسة الخارجية على العموم موالياً للغرب، وبقيت مستويات من العلاقات بين الحكومتين. فالشعب البريطاني وثقافته ومؤسساته الرياضية والأدب الانكليزي واللغة الانكليزية لازال لها كُلّها رصيد من حسن النوايا في باكستان. فعندما يكون الباكستانيون في بريطانيا، بخاصة الذين تلقوا منْهم تربيةً غربية، يشعرون في نواح شتى ـ غير متوقعة ـ كأنما هم في بلدهم؛ كذلك الأمر بالنسبة للزوار البريطانيين لباكستان؛ وهناك مالا يُحصى من الصداقات الشخصية. وهذه الأشياء الطيبة لم تتأثر بالنتائج السياسية لتَقْسيم عام ١٩٤٧.

وبعد خيبه أملها في الكومَنْوِلْثْ التفتَتْ باكستان في أواخر عام ١٩٤٩ إلى تَمتِين علاقاتها بالدول المسلمة الشقيقة ـ افتراضاً ـ وتتابع توقيع اتفاقيات الصداقة مع عشر من هذه الدول ورتبتْ نشاطات التبادل الثقافي والزيارات المتبادلة مع رؤساء تلك الدول. وبذلت جهود لعقدِ مؤتمرات إسلامية متنوعة في (كراتْشي) لم ينجح منها، عملياً، إلا المؤتمر الاقتصادي وبمجيء عام ١٩٥٣ أصبح واضحا لكل باكستاني ـ ماعدا أكثرهم رومانسية أنه لم يحصل أي تقدم ملموس في هذا المضمار. فالسياسات الجديدة في معارضة الاستعمار والحياد والقومية العربية أو الإيديولوجيات العرقية السائدة كانت مثار اهتمام هذه البلدان أكثر من المثاليات في الأخوة الإسلامية القديمة. وأثارت هذه العقائد، بالمناسبة اهتمام الهنْد الشديد وهي دولة أكبر وأكثر بروزاً من باكستان. وزعماء إندونيسيا ومصر البلدين المسلمين اللذين ركزت عليهما باكستان اهتمامها الخاص في البداية، للقوة الديموغرافية للأولى والموقع الاستراتيجي الجغرافي للثانية، لم يُعيرا التفاتاً لما أرادته منهما باكستان في تناسي صلاتهما بالسيد (نهرو) وكان التبادل مع تركيا وإيران ينمو حقاً باطراد حسن. والدولة الأولى يجب ألا تُحْسب دولة مسلمة أبداً (حَسْب تقديرها هي نفسها).

أما افغانستان، وهي ليست فقط دولة مسلمة بل جارة أيضاً، فقد بقيت على موقفها غير الودي كما ذكرنا ولوان درجته قد انخفضت نوعاً ما. وهذه أحجية من آسيا، غريبةٌ ومعقدة وعلينا أن نبذل ما في وسعنا لتوضيحها. ونظرة سريعة على الحقائق الأساسيه المعروفة قد

توحي بأن باكستان، في نفس الوقت الذي تستهجن فيه خصومة أفغانستان معها، تستطيع مع ذلك تجاهلها، وهذا ماكانت تفعله إلى حدٍ كبير في الواقع حتى عام ١٩٥٥ تقريباً. افغانْستان الفقيرة التي لامنفذ لها على البحر هي الآن ـ وكانت من قبل ـ أكثر بلاد المسلمين تخلفاً وعدم استقرار تحكمها ملكية مستبدة، وتركيبتُها الاجتماعية خليط من أجناس ولغات، وتعداد سكانها يبلغ سُدْسَ سُكان باكستان. ولكن بخلاف اندونيسيا ومصر، هي بلد مجاور لباكستان وهم الباثان أو (البختُون). وهَذَان الاعتباران الجوار والعنصر، يضعان بالضرورة العلاقة الباكستانية الافغانية في إطار خاص بالاضافة لذلك، فإن العائلة الافغانية المالكة ليستْ هي فقط من أصل باثاني بل هي مباشرة من أحفاد (سردار) (بيشاورْ) الذين كانوا يحكمون قبل حوالي مئة وخمسين عاماً أغْنَى أراضي الباثان ـ سهول بيشاورْ ـ وهي الآن جزء من باكستان، وهذه حقيقة لاينساها أبداً افراد العائلة المالكة.وقد تُفسّرُ النقطةُ الأخيرة الكثير من السياسة الخارجية الأفغانية التي تبدو أحياناً، غبية وانتحارية. وقبل انتهاء الحكم البريطاني في الهنْد، أساءت الحكومة الأفغانية ـ وهذا يعني العائلة المالكه هناك ـ من موقعها في هضاب كابول، تقْدير مايَجْري من أحداث في السهول الواسعة... تحتها في شبْه القارة. وحسبتْ أن الفوضى ستعم لذلك أعلنت رسمياً حقها في كل منقطة في امبراطورية الهند، التي يسكُنُها الباثان. ولم يُلْفتْ ذلك الإعلان آنذاك انتباهاً كثيراً على المستوى الرسمي باعتباره ـ مُضحكاً ـ فأهمله رئيس الحكومة الموقتة في دلهي السيد (نِهرو) نفسه. ولكن الاعلان كان بداية للحركة المزمنة المطالبة بدولةِ (بختونسْتان). ولقد تعجبتْ باكستان بعد قيامها لموقف دولةِ مسلمة جارة في هيئة الأمم المتحدة، عندما عارضت أفغانسْتان دخول باكستان عضواً في هيئة الأمم، وكانت الدولة المسلمة الوحيدة المعارضة. وفي كانون أول ـ ديسمبر ـ ١٩٤٧ صعَّدت افغانسْتان موقفها المعادي وأعلنت عدم اعترافها بمعاهدة (دُورانْ) التي خططت الحدود بين البلدين والتي ورثَتها باكستان من بريطانيا.

ثم بدأت هجمات متفرقة صغيرة غير مجدية داخل حدود باكستان، صاحبها أحياناً محاولات لكسب ولاء القبائل أو بَعْض الأمراء الذين حكموا مثلا إمارة (ديْرْ) وشك الباكستانيون ـ ولم يكن ذلك بدون سبب ـ بتوَرُّط الهنْد في كل هذه الأعمال لأن مصلحتها ظاهرة في ذلك كله بخاصة أثناء الفترة الحادة من الخلاف حول كشمير. ولقد تسرعت الهند

أحياناً لدرجة أنها سمحتْ لاجتماعات الداعين لدولة (بختونستان) في (دِلهي) وقطعت العلاقات الدبلوماسية تقريباً بين باكستان وأفغانستان مرتين الأولى في عام ١٩٥٥م والثانية عام ١٩٦١. ومن الناحية العسكرية كان باستطاعة باكستان منذ البدء مواجهة افغانستان بسهولة على هذا الصعيد. ولم تتأثر القبائل داخل باكستان بصورة حادة، وكانت القوات الافغانية فقيرة العدة والعتاد والقيادة. وحتى كتابة هذه السطور ـ عام ١٩٦٤ ـ فالحقيقة انه رغم استمرار دعايه (بختونستان) أعيدت العلاقات الدبلوماسية الباكستانية الافغانية وعادت التجارة تعبر ممر (خيبرْ) وغيره من الممرات والتي كان قد أوقفها الأفغان سابقاً، وبدا أن الصلات بين البلدين قد تحسنت إلى حد ما.

قبلَ أنْ يتبنى السيد (خروتْشيف) موضوع (بَخْتونسْتان) المثير للخلاف؛ كان أكبر حدثٍ في تاريخ باكستان الدولي، حتى ذلك التاريخ، هو قرارها في أيار ـ مايو ١٩٥٤ بقبول العونِ العسكري الأميركي، بعد ستة أسابيع تقريباً من توقيع معاهدة تبادل العون العسكري مع تركيا. وجاءت عضوية باكستان في معاهدة منظمة جنوب شرقي آسيا وحلف بغداد ـ ألسْنْتُو ـ Cento بعد عام أو عامين.

وكانت سياسة لياقة علي خان الخارجية بعد وفاة السيد جناح عام ١٩٤٨، من الناحية النظرية: عدم الانحياز لأي من الكتلتين الكبيرتين في العالم. والميل نحو الغرب، والذي كان واضحاً خلال استلام جناح للحُكم، كما أوْضَحْنا قبلاً، أعيد في الواقع تأكيده عام ١٩٥١ عندما تهرّب (لياقة علي خان) من دعوةٍ لزيارة موسكو وسافر بَعْدها بقليل إلى واشنطن، ولكنه لم يُعْطِ أيّ تَعَهدٍ واضح، من أي نوع لأميركا. واستمرت هذه السياسة عند استلام الخواجا ناظم الدين لرئاسة الوزراء. وبقي مع ذلك الخوف من سوء نية الهنْد على المدى الطويل؛ والجهود التي بذلتْها باكستان طوال ست سنوات أوّلا مع الكومنْولْثْ ثم مع شقيقاتها الدول المسلمة لم تؤدّ إلى شيء؛ لذا فالقرارات الكبيرة التي اتخذتْها باكستان عام ١٩٥٤ كان أساسها الضرورة الواقعية. ونظرة للخلف تمكننا من رؤية الشيء الجدير بالملاحظة وهو أن هذه القرارات قد اتخذت في عهد وزارة السيد محمد علي في الوقت الذي كانت فيه باكستان على عَتَبةِ فترةٍ من عدم الاستقرار الداخلي الشديد؛ ومع ذلك تمسكت بها وثبتت عليها في بحران المماحكات السياسية واللف والدوران التي شملت تغييراً الأربعة رؤساء وزارات وما بعدها حتى قيام الحكم العسكري عام ١٩٥٨م.

ولقد حرص الاميركيون منذ البدْء ـ عام ١٩٥٣ ـ على إعلام السيد (نِهرو) وحكومته بنياتهم، وأكدوا له أن العون المقدّم لباكستان دفاعي فقط وأن باكستان، في نظرهم تحتاج ذلك لتقويتها في مواجهة القوّة الشيوعية في الشمال؛ وأن تعهداً بذلك سيُكْتَبُ في نص الاتفاقية لِمَنْع استعمال المعدات المقدمة في أي عمل عدواني. وإذا كان لايزال في ذهن أي باكستاني أوْ مراقب أجنبي شك في أن اهمّ أهداف سياسة الهند هي إبقاء جارتها الصغيرة ضعيفة معزولة لابتلاعها وتمثلها في المستقبل فلا بد أن ردود فعل الهند على هذه الاتفاقية تزيل ذلك الشك. لقد عاد كاتب هذه السطور لشبه القارة في ذلك الوقت بالذات وراقب بدهشة نتائج حملة الدعاية الهندية المنظمة. فلقد قدمت كل حُجة متصورة ضد هذا العرض الأميركي لباكستان وقبول الأخيرة له. وأكثر هذا الصخبَ الهندي كان صادقا بالطبع، فنبرته كانت تنم عن إحساس بالإهانة. ولكن الدافع في العَقْل الباطن لم يُشكّ فيه، وخلاصة الأمر هو إن عامة الهندوس يشعرون، ولو بَعْد سنين من تقسيم كان بالرضى المتبادل، إنه لا يحق لباكستان أن توجد كدولةٍ مستقلة، وهذا الأمر لايمكن إلّا يبقى في العقل الباطن لكبار المسؤولين في وزارة الخارجية الهندية، فلايحق لباكستان تبعاً لهذا الشعور أن يكون لها سياسة خارجية مستقلة ـ في نظرهم ـ فقدرُها هو في البقاء كمذنب يدور في فَلَك الهنْد. والتأمل في حماس الهنْد نفْسها، بالمقابل، للحصول على عون أميركي وبريطاني عندما شعرت بضغوط خطرة عليها من جارة كبيرة كالصين، بعد تسعِ سنوات من ذلك التاريخ، نقول التأمل في ذلك يدعم تفسيرنا السابق للموقف الهندي.

والذين انتقدوا موقف الهنْد عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤، يُجازفون منذ مدة في إثارة موضوع إن الهنْد الآن ومنذ مدة، تقبل العون الاقتصادي الأميركي بكميات كبيرة، ودَعْمُ اقتصادها من هذا الباب ساعدها على تقوية قواتها المسلحة وإعادة تسليحها بعدةٍ وعتاد اشترتْه من بريطانيا ومن غيرها. أليس هناك كما ترون تناقض في الموضوع؟ فالنتيجة من الناحية الواقعية واحدة في العون الاميركي والغربي لباكستان والهند على السواء. ولقد عَمَدتْ الهنْد نَفْسها منذ عام ١٩٥٢ إلى إعطاء مساعدات عسكرية لدولة (نيبال) على أسس شبيهة بالعون الأميركي المعروض لباكستان الآن. بالإضافة لذلك يمكن التفكير ـ معنوياً على الأقل ـ بأن باكستان، كعُضو في الكومنولث، ورثت عن البريطانيين الواجب الثقيل في الدفاع عن الحدود الشمالية الغربية لشبه القارة، وكل تعزيز لإمكاناتها العسكرية نتيجة عون

من دولة صديقة قد يخدم بصورة غير مباشرة، مصلحة الهنْد. ولكن لم يكن لهذا الاعتبار أي وزْنٍ بالنسْبة للهنْد. وفي أوائلِ عام ١٩٥٤ وصلت حملة الدعاية الهندية حَدَّ (الهِسْتيريا)، وكان السيد (نهْرو) يخطب يومياً تقريباً مهاجماً العَرْض الأميركي لباكستان. ولقد أعلن قائلاً: «ليستْ هذه خطوة نحو حرب محلية بل حَرْب عالمية..، ولكنها ستنقل الحرب إلى أبوابنا». وربما كانت أولى حُججه أن قبول باكستان للعرض سيدمر (منطقة السلام) التي خلقتْها الهنْد حولها. إذا راجعْنا أدبياتُ الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر أوْ أوائل القرن العشرين يُلْفِتُ نظرنا تعْبيرٌ آخر مؤلّف من ثلاث كلمات ويبدو مرادفاً دقيقاً فإذا استْبدلْنا التعبير الاستعماري بتعْبير «منطقة سلام» نجد أنه مناسب تماماً والاستبدال جميل. فالتعبير الاستعماري القديم هو «دائرة النفوذ» Sphere of Influence

ولما خابت اخيراً جهود الهنْد في منْع توقيع الاتفاقية الدفاعية بين باكستان والولايات المتحدة الأميركية بَادَرَتْ لاستغلالها في مشكلة كشمير. فلقد ادّعت أن الاتفاقية تضعُ ملامح جديدةٍ كُلياً للقضية، ونجحَتْ بضغطها في سحب الضباط العسكريين الأميركان الذين كانوا يخدمون في فريق الامم المتحدة للرقابة على خطوط وقف إطلاق النار مدعية أنهم لن يستطيعوا البقاء غير منحازين. ثم في سلسلة من الخطوات تراجعت عن وَعْدِها الذي قطعتْه عندما احتلت قواتها كشمير في تشرين أول ـ أكتوبر ـ ١٩٤٧ بإجراء استفتاء لشعْب كشمير للتأكد من رغبة الشعب في موضوع تقرير مصيره ومستقبله وقبل ذلك كانت قد تخلصَتْ من الرجلين اللذين لولاهما ما كانت الهند تستطيع أبداً تثبيت أقدامها في كشمير: فالمهراجا الذي اسْتُغِلَّ لإضفاء الشرعية على تدخلُ الهند، نفي من كشمير إلى (بومْبايْ) عام ١٩٤٩ حيث بقي هناك حتى مات عام ١٩٦١م؛ أما الشيخ عبد الله صديق السيد (نهْرو) فكما ذكرنا سابقاً، عندما بدأتْ وجههُ نظرِه في سياسة الهند تَتَغَيَّر عام ١٩٥٣، سَجنُوه، وباسْتْثناء بضْعة أسابيع من الحرية عام ١٩٥٨م، بقي في السجن حتى الثامن من نيسان ـ إبريل سنة ١٩٦٤ ـ قبل خمسة اسابيع من إنْهاء هذا الكتاب أما ماذا سيكون تأثير إطلاق سراحه على قضية كشمير فأمر مُعقدٌ الآن.

وليس من العدل أن نبالغ في التركيز، قَبْل الانتقال لمواضيع أخرى، على التناقُض الحاد الذي ذكرناه عن موقف الهنْد من قبول باكستان للعون العسكري الأميركي عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤، وحماسها هي ذاتها في قبوله عنْد انقضاض الصين عليها عام ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣. إذْ

لم يكن الأمر الأخير مُجرد تبادل وثائق وخطب. فلقد اخترقت حدودها لأيام قليلة. ومع ذلك يَبْقى تناقض موقِفيْ الهنْد (وربما يُسميه البعض النفاق الهندي) واضحاً للعيان... ولايمكن تجاهله.

ومثل غيرها من البلاد التي استقلت حديثاً كان لباكستان العديد من البعثات الدبلوماسية في الخارج وربما لم يُنجز أكثرها إلا القليل بالإضافة لتذكير الناس بوجودها... ولولا اعتبارات السمعه الدولية والتنافس ربما كان من الأفضل استخدام موظفي تلك البعثات في باكستان بالذات. وكانت الحالة خطيرة بسبب قلة عدد الدبلوماسيين المدربين. والواقع أن أهمية علاقات باكستان الخارجية هي فقط مع جيرانها القريبين، ومع الولايات المتحدة وإلى حدٍ ما مع بريطانيا... من بقايا الصلات القديمة.

هناك حقيقة كثيراً ما تُنْسَى وهي أن روسيا لايَفْصلها عن مجاورة باكستان إلا مسافة عشرين ميلاً فقط، هذه المسافة هي عرض اللسان الأفغاني المسمى (وكهان) ولأن المسلمين المخلصين ينفرون من الإلحاد المعلن، فإن أكثر الباكستانيين لايُحبون النظام السوفيتي، ولم تكن العلاقات ودية أبداً بين الدولتين. وكما ذكرْنا، كان دَعْم السيد (خروتْشيف) لإثارات حركة (بَخْتونسْتان) إساءةً كُبرى لباكستان. وفي نفس العام، وكان الأمر الأسوأ، دَعَمَ موقفَ الهنْد في كشمير، ومنذ ذلك الحين استعملَ حق (الفيتُو) في مجلس الأمن ليمنع أية مناقشة لمشكلة كشمير في الامم المتحدة. ومع كل هذا لم تتردد باكستان عام ١٩٦١ في قبول العون الروسي عندما عُرض عليها في ميدان التنقيب عن النفط وكانت جهود الشركات الاميركية والبريطانية في هذا المجال خائبة حتى حينه. وسرعان ما بدأ الخبراء الجيولوجيون والفيزيائيون الروس في عملهم في منقطة (بتوارْ) وتسع نقاط أخرى: ست منها في باكستان الشرقية. ورمزت هذه الاتفاقية إلى بَعْضِ الاسترخاء في السياسة الخارجية، والذي بَدَأ في ذلك الوقت، كنتيجة لقناعتها بأن الدعم المستمر للقوى الغربية لن يكون أبداً لصالحها. سَتَبقى أساساً صديقة لتلك القوى واعية إن المصالح مُتبادلة وانها تحتاج لعَونها، ولكن ستبدي مرونة أكثر في أعمالها مثلما تفعل بريطانيا وفرنسا هذه الأيام تجاه الولايات المتحدة الأميركية. وتمثل الاسترخاء في العلاقات مع روسيا، بعْدَ قليل، في اتفاقية التبادل التجاري وفي افتتاح خط جوي بين البلدين، كذلك وقعت اتفاقيات مع «مذنبات» الاتحاد السوفييتي في شرق أوروبا ومع يوغوسلافيا.

ونفْسُ الاعتراضات على الإلحاد المعلن تنطبق طبعاً على الصين الشيوعية. ولكن علاقات باكستان بِتِلْكَ الدولة لم تكن أبداً متوترة بعكس روسيا.

ومن خلال إدارتها لمنطقه (جلْجتْ) في كشمير أصبحت باكستان جاراً كاملاً للصين وحدود البلدين الجبلية القليلة السُكانَ تمتد على مسافة مئتي ميل، وفي آذار ـ مارس ـ عام ١٩٦٤ توصلت الدولتان إلى اتفاقية صداقة تحددُ المناطق الحدودية. وبالإضافة لعَدَم وجود أي نقاط خلاف ملموسة، يجب زيادة شيءٍ كبير لصالح الصين هو تنامي العداء بينها وبين الهنْد خلال الفترة مابين ١٩٥٦ ـ ١٩٦٣، وهذا ما أثلج صُدورَ الباكستانيين، والكثير منهم رحبوا باختراق الصين لأراض تحتلها الهنْد على طرفي الهملايا ولم يُخفوا غبْطَتَهم عندما سحقت الصين القوات الهنْدية في (آسامْ). والأميركان والبريطانيون الذين أهملوا دائماً وأبداً وجهة نظر باكستان، شُدهوا لهذا الموقف. أما القلة من الغربيين الذين عرفوا الشعور بالمرارة والأسى لدى باكستان في الأمور الدولية فلم يكن الأمر مفاجأة لهم. وعلى المدى الطويل، من المحتمل أن الباكستانيين العارفين لايثقون بنظام (بكين)، أما على المدى القصير فإنها المساعد الذي يلقى منهم مزيد الترحيب، وليس في نيتهم إهمال المكاسب الحاصلة وفي الفصل التاسع عشر المزيد عن موضوع التنامي السريع للصداقة الباكستانية الصينية وللأحْجية الجذابة المثلثة الأضلاع في العلاقات الباكستانية ـ الصينة ـ الهندية.

وكفرْع مُنْبثقٍ من تلك الأحجية كانت محاولات باكستان اكْتِساب ودّ (نيبال) التي كانت على علاقات صعبة مع الهند. وبقي علينا أن نذكر (بورما) و(سيلان) فعلاقة باكستان بالدولتين حسنة. ولقد وُقعت اتفاقية حدود مع (بورما) في (أراكان) هذا العام. وبالنسبة لسيلان التي زارها رسميا الرئيس أيوب خان وليس لها حدود جغرافية مع باكستان بل (جيرة) بحرية لأنه بدون موانئها تُصبح النقليات البحرية بين غرب وشرق باكستان مُزْعجة. و(بورما) و(سيلان) دولتان ذواتا غالبية بوذية، والبوذية أقرب إلى الهندوسية من الإسلام، أضفْ إلى ذلك إن الدولتين المذكورتين هما كالهنْد مُحايدتان في سياستهما الخارجية، ومع ذلك فلقد كان لهما هموم داخلية جمة ولازال الأمر كذلك في (سيلان) بسبب الاقليات الهنْدوسية الموجودة على أرضها. ولاشك إنهما أحيانا ينظران للجارة الكبيرة الهنْد بشيء من الخوف مُتوجستين كلتاهما من الشكل الذي ستتخذه في المستقبل «منطقة السلام» الهندية.

obeikandl.com